﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠﴾ [آل عمران: 90]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا رَغَّبَ اللّه تعالى في التَّوْبَةِ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ رَهَّبَ مِنَ التَّوانِي عَنْهَا، فقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾: الزَّايُ والياءُ والدَّالُ: يدلُّ عَلَى الفضلِ[2]، ومنهُ الزِّيادَةُ، وهي: أَن يَنْضَمَّ إلى ما عَلَيْهِ الشَّيْءُ في نَفْسِه شيءٌ آخر، وتُطلق الزِّيادَةُ تنبيهًا على أنَّ الشَّيءَ قد بلغَ الغايةَ، ومِنْهُ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾[3].

2) ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: الضَّادُ واللَّامُ: تدلُّ تصريفاتُهما على ضياعِ الشَّيء وذهابِهِ في غيرِ حقِّه[4]، وَمِنْهُ الضَّلال: ضِدُّ الهدَى، يُقَال: ضَلَّ في الأمر؛ إذا لم يَهْتَدِ لَهُ[5]، ورَجُلٌ مُضَلَّلٌ: لَا يُوفَّقُ لِخَيْرٍ[6]، ويوصَفُ الإنسانُ بالضَّلالِ، فيُقَالُ: هُوَ ضالٌّ، أمَّا الضَّالَّةُ؛ فَلِلْبَهِيمةِ، وهو الحيوانُ الضَّائعُ[7].

والضَّالُّ ضَرْبَانِ[8]:

أَحَدُهما: مَن سلَك طريقَ الضَّلالةِ عَنْ عَمْدٍ، كمَا قالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣﴾ [الواقعة: 92 - 93].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/478.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زيد).
(3) الرَّاغب، المفردات: (زاد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضل).
(5) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغَة: (ضل).
(7) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (ضلل).
(8) أبو عُبيد الهرويّ، الغَريبَيْن: (ضل).

والآخَر: مَن سَلَك طريقَ الضَّلالةِ عَنْ غير عَمْدٍ، ومنهُ قولُ اللهِ تعالى حكايَةً عَن مُوسَى عليه السلام أنَّهُ قالَ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: 20].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ الذينَ كَفَرُوا بعدَ إيمَانِهم، واسْتَمَرُّوا علَى كُفْرِهِمْ مُتَمَادِينَ في الغَيِّ والضَّلالِ إِلَى المَمَاتِ؛ لَن تُقبل لَهُم توبةٌ عِنْدَ حُضُورِ المَوْتِ، وأُولئكَ هُمُ الَّذين ضلُّوا سبيلَ الحقِّ، فأخطَؤُوا منهجَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

أَثَرُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لأنَّ بينَهُما شبهَ كمالِ الاتِّصالِ، وهو المُسَمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ؛ وذلك لوقوعِ الآيةِ جوابًا عَن سُؤَالٍ يُفْهَمُ مِن قَوْلِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وما حالُ الذين اسْتَمَرُّوا علَى الكُفْرِ، وأوغَلُوا فيه؟ فجاء الجوابُ في قَوْلِ اللهِ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

سِرُّ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

التَّحْذِيرُ مِنَ الْكُفْرِ وَأَسْبَابِهِ، وَتَهْدِيدُ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ

عُرِّفَ المسنَدُ إِلَيْهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالموصوليَّة في قولِه تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾؛ لِلْإِيمَاء إلى نَوْعِ الخَبَرِ المَحْكُوم بِهِ على المُسْنَدِ إِلَيْهِ، وأنَّهُ من جِنْسِ العُقوبَةِ، وفيهِ الإِشْعَارُ بوَجْهِ بِنَاءِ الخبرِ، وأنَّ الجزاءَ المذكورَ في قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ مُسَبَّبٌ عَنِ الْكُفْرِ والإِيغَالِ فِيهِ، وفِي هذَا تحذيرٌ مِنَ الكُفْرِ وأسبَابِه، وتهديدٌ لأهلِهِ وأصحابِه.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/578 - 583. والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 137. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الْإِصْـــرَارُ عَـلَى الْكُفْرِ وَمُدَافَعَةُ الْـحَـقِّ أَقْـبَـحُ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ

اللَّامُ في الاسْمِ المَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيهَا وجهانِ:

أحدُهما: أن تَكُونَ اللَّامُ لِلْعَهدِ، والمقصودُ: اليهودُ الَّذين كَفَرُوا بِعِيسَى عليه السلام والإنجيلِ بعدَ أَنْ آمَنُوا بِمُوسَى عليه السلام والتَّوارةِ، ثُمَّ ازْدَادُوا كفرًا؛ إذْ كفَرُوا بمحمَّدٍ ﷺ والقرآنِ، ويحتَمِلُ أَنْ يكونَ المرادُ: أهلَ الْكِتَابِ جَمِيعًا، "آمَنُوا برَسُولِ اللهِ ﷺ قبلَ مَبْعَثِه، ثُمَّ كفَرُوا به بعدَ مَبْعَثِه، ثُمَّ ازدادوا كُفْرًا بإِصْرَارِهم على ذلك، وطعنِهم في نُبُوَّتِه في كُلِّ وقتٍ، وعداوَتِهم لَه، ونَقْضِهم لعُهُودِهم وصَدِّهم النَّاسَ عَن طريقِ الحقِّ، وسُخريَّتِهم بآياتِ اللهِ"[1].

والوجهُ الآخَرُ: أَنْ تَكون اللَّامُ لِلْجِنْسِ الدالِّ على العُمومِ، فهي تشمَلُ كلَّ مَن آمَنَ، ثُمَّ ارتدَّ، وازدَاد كفرًا بِمُدافَعَتِهِ الحقَّ وإصرارِهِ على الكفرِ والعنادِ[2].

والوجهُ الثَّاني أشمَلُ من سابقِهِ؛ لاندراجِ الأوَّلِ فيه.

نُكْتَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾:

شَنَاعَةُ حَالِ مَنِ اسْتَبْدَلَ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ

الإضافة في قوله: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يُرادُ بها تحقيقُ وقُوعِ الإيمانِ منهم، فإثباتُ كفرِهم بَعْدَهُ زيادةٌ في تشنيعِ حالهم وتفظيعِ أَمْرِهم[3].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْعَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾:

فَـظَـاعَـةُ الْـكُـفْرِ وَشَنَاعَتُهُ بَلَغَتِ الْغَايَةَ، فَكَيْفَ بِـالْإِيـغَـالِ فِيهِ وَالِازْدِيَادِ مِنْهُ؟

﴿ثُمَّ﴾ من قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ دالَّةٌ على التَّراخِي - كما هو الأصلُ فيها- وذلك أنَّ الكُفْرَ لَمَّا كان لفظاعَتِهِ وشناعتِهِ جديرًا بالنُّفرة عَنْهُ؛ نبَّه اللهُ تعالى على ذلك باستبعادِ إيقاعِهِ،

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/176.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/176.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/381.

فكيف بالإيغالِ فيه والازديادِ مِنْهُ، فعُبِّرَ عَنْ ذلك بأداةِ العطف المفيدةِ التَّراخِيَ، فقالَ سُبحانه: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾[1].

دِلَالَةُ صِيغَةِ الِافْتِعَالِ ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾:

الإيغَالُ فِي الْكُفْرِ أَمَـارَةُ انْتِكَاسِ الْفِطْرَةِ

الفعلُ ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾ من قَوْلِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ على زِنَة (افْتَعلُوا) مِنَ الزِّيادَةِ، والدَّالُ الأولَى بدلٌ من تاءِ الافتعالِ[2]، وهذه الزِّنَةُ تدلُّ على ضَرْبٍ مِنَ التَّكلُّف، فهؤلاء المذكورُونَ لم يَكتَفُوا بالكُفْرِ، بل تكلَّفوا، واجتهَدُوا في الازديادِ مِنْهُ والإيغالِ فيه؛ لانتكاسِ فِطَرِهِمْ وارْتِكَاسِ عقولِهم.

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ الْفَاعِلِ إِلَى التَّمْيِيزِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾:

لُزُومُ اللَّفْظِ حَالًا خَاصَّةً بِاعْتِبَارِ النَّحْوِ لَا يُنَافِي قَصْدَ نِكَاتٍ بَلَاغِيَّةٍ مِنْهُ

﴿كُفۡرٗا﴾ من قولِه سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ تَمْيِيزٌ محوَّلٌ عنِ الفاعل، والأصلُ: ازدادَ كُفْرُهم[3]، والقصدُ من تحويلِ الفاعلِ إلى التَّمييزِ: المبالغةُ وإفادةُ الشُّمول لجميعِ مَا فِيها، حيثُ جعلَ ذَوَاتِهم أنفسَها كفرًا، ثمَّ هُوَ يزيدُ، والزَّائدُ حقيقةً: إنَّما هو ما اشْتَمَلَتْ عليه ذَوَاتُهم من معنَى الكفرِ.

وتَنْكِيرُ ﴿كُفۡرٗا﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ وزيادةُ المبالغةِ، وكونُ التَّمييزِ ملازِمًا التَّنْكِيرَ بحسب الصِّناعةِ النَّحويَّةِ لا ينافي إفادتَهُ المبالغةَ أو التَّعظيمَ؛ إذْ تقرَّر في القواعدِ: أنَّ كونَ أمرٍ مَا لازمًا بحسب القاعدة النَّحويَّةِ لا ينافي قصدَ إفادةِ ما يَقْتَضِيهِ المقامُ[4].

سِرُّ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿تُقۡبَلَ﴾ لِلْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾:

حَقَارَةُ الْمُرْتَدِّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

بُنِيَ الفعلُ ﴿تُقۡبَلَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُهُ لِلْعِلْمِ به، وهو اللهُ ﷻ؛ إذْ هو سُبحانه الَّذي لَهُ الأَمْرُ في قَبُولِ التَّوبةِ أو عَدَمِ قبولِهَا، كما قالَ سُبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: 3]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/478.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/253.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/253. والآلوسي، روح المعاني: 2/209.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 6/229.

يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشُّورى: 25]، وفي حذفِ الفاعِلِ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إيماءٌ إلى تحقيرِ مَن كَفَرَ بَعْدَ إيمانِهِ، ثُمَّ ازداد كفرًا؛ إذْ إنَّ الفعلَ (يقبل) يأتي في القرآن الكريم مَبْنِيًّا للفاعلِ في مَقامِ المدحِ والثَّناءِ، ومبنيًّا لِلْمَفْعُولِ في مقامِ الذمِّ والتَّحقير.

نُكْتَةُ تَرْكِ الْفَاءِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾:

جاءَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ دونَ واوٍ، فلم يَرِدْ: (فلن تُقبَل توبتُهم)؛ إشعارًا بأنَّ ما فَعَلُوه إنَّما هو لكونِهم مهيَّئين لِلْكُفْرِ مِنْ أصلِ الطَّبْعِ والجِبِلَّةِ، فلا يَتُوبُونَ توبةً صحيحةً نافعةً[1].

خَتْمُ اللهِ تَعَالَى عَلَى قُلُوبِ الْمُتَوَغِّلِينَ فِي الْكُفْرِ

بَرَاعَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ كِنَايةٌ عن موتِهم على الكفرِ؛ لأنَّ الَّذي لا تُقبَلُ توبتُهُ هو الَّذي يموتُ على الْكُفْرِ، ونُكْتَةُ الكِنايَةِ: تغليظُ شأنِ هذا الصِّنْفِ مِنَ الكَفَرةِ، وإبرازُ حالِهِمْ في صورةِ الآيِسينَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تعالى، وَهِيَ أشدُّ الأحوالِ وأشنَعُهَا[2].

مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ؛ فَهُوَ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى

دِلَالَةُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾:

قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ يحتَمِلُ أن يكون على ظاهرِهِ، بمعنَى: أنَّه تَصْدُرُ مِنْهُمْ توبَةٌ، إلَّا أنَّها غيرُ مُسْتَكْمِلَةِ الشُّروطِ، فلم تُقْبَلْ؛ إمَّا لكونِهَا قولًا مجرَّدًا، أو لكونِهَا فَلَتَاتٍ نَفْسِيَّةً تصدُرُ منهم حالَ الكَرْبِ أَوِ الشِّدَّة، ثُمَّ يعُودُون لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ قبلُ، أو لكونِهَا توبةً عندَ حضورِ الموتِ؛ فإنَّ هذه التَّوبةَ لا تُقبَلُ[3]، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[4].

تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْعَبْدِ مَا لَمْ تَصِلْ رُوحُهُ الْحُلْقُومَ

ويَحْتَمِلُ أنَّ قولَ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ يُرادُ به عدمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/479.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/382 - 383. والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/286.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1311.

(4) رواه أحمد في مسنده، حديث رقم: (6160)، والتّرمذيُّ في جامعه، حديث رقم: (3537)، وابن ماجه في سننه، حديث رقم: (4253)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: (1903).

وقوعِ التَّوبةِ مِنْهُمْ أصلًا، فضلًا عَن عدَمِ قَبولِهَا، والمعنى: لن تُقبلَ توبتُهم؛ لعدَمِ صُدُورِ التَّوبةِ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: 48]، أي: لا شَفَاعَةَ لهَا أصلًا، فتُقبل[1].

والوَجْهَانِ مُتَآيِلَانِ، لا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا مِنْ حَيْثُ المؤدَّى[2].

دِلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾:

الْكُفْرُ وَالِازْدِيَادُ مِنْهُ غَايَةُ الضَّلَالِ وَالِانْحِرَافِ

الإشارةُ بـ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ في قَول اللّهِ تعالى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ إلى المذكورينَ قبلُ باعتبارِ أوصافِهم: مِنَ الكُفْرِ بعدَ الإيمان، والازديادِ في الكُفْرِ والتوغُّلِ فيه؛ للإشعارِ بأنَّ تلكَ الصِّفاتِ هي سببُ بلوغِهم في الضَّلالِ غايتَهُ[3].

وفي التَّعبيرِ باسْمِ الإشارَةِ إيماءٌ إلى أنَّهم متميِّزُونَ بِضَلَالِهم أكملَ تمييزٍ وأَبْيَنَهُ، وهذا أبلغُ في ذمِّهِمْ، وزادَهُ ذمًّا مَا في اسمِ الإشارة ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ من مَعْنَى البُعْدِ المفيدِ بُعْدَ منزلتِهم في الضَّلالِ، وأنَّهم متوغِّلُونَ فيه للغَايةِ.

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾:

الضَّلَالُ مَرَاتِبُ وَدَرَكَاتٌ

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وهو من قصرِ الصِّفَةِ على الموصوف، وطريقُه: تعريفُ جُزْأَيِ الإسناد: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾، ففيهِ قصرُ الضَّلالِ على أولئك المَذْكُورِينَ؛ لأنَّ المقصُورَ بتعريفِ طرفَيِ الإسنادِ هُوَ المُعرَّفُ باللَّامِ، سواءٌ أكان مقدَّمًا أَمْ مؤخَّرًا.

وهذا القصرُ ادِّعائيٌّ؛ إذْ إنَّ ظاهرَ قولِه تعالى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ يَقْتَضِي نفيَ كونِ غيرهم ضالًّا، وليس الأمرُ كذلكَ: فإنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/304.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1311.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1312.

كلَّ كافرٍ ضالٌّ، سواءٌ أَكَفَرَ بَعْدَ إيمانٍ أم كانَ كافرًا أصليًّا[1]، فدلَّ هذا على أنَّ القصرَ ادِّعائيٌّ وليس حقيقيًّا تحقيقيًّا، والمعنى: أنَّهم هُمُ الضَّالُّونَ البالغونَ في الضَّلالِ غايتَهُ، حتَّى كأنَّ ضلالَ غيرِهم بالنِّسبةِ إلى ضلالِهِمْ لَيْسَ بشيءٍ.

ويُؤيِّدُهُ أنَّ اللَّامَ في ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ تدلُّ على الكمَالِ، أي: هُمُ الكاملونَ في الضَّلالِ، الغَارِقُون فيهِ[2].

دِلَالَةُ ضَمِيرِ الْفَصْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾:

لَا تَوْبَةَ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ

ضميرُ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ لا يُرادُ به دِلالتُهُ على القصرِ، وإنَّما المرادُ به تأكيدُهُ وتقويَتُهُ؛ لأنَّ القصرَ مستفادٌ مِن تعريفِ طَرَفَي الإسنادِ.

وأُكِّدَتِ الجملةُ بإيرَادِهَا اسميَّةً[3]؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ آكدُ مِنَ الفعليَّةِ، وأدلُّ على الثُّبوت واللُّزوم، ففيه إيماءٌ إلى استمرارِ المذكورين في ضَلَالِهم حتَّى يُدْرِكَهم الموتُ وهُم عَلَى ذَلِكَ، فيتحقَّقُ فيهم قولُ اللهِ تَعَالَى قَبْلُ: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾، **وَقَوْلِهِ:** ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾، **وَقَوْلِهِ:** ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، **وَقَوْلِهِ:** ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، **وَقَوْلِهِ:** ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

تَنَاسُبُ مَقَاطِعِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ مَعَ مَطَالِعِهَا

قالَ اللهُ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾، وقال سبحانَه: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التَّوبة: 69]، وقوله جلَّ وعلا:

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/286.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/479. والآلوسي، روح المعاني: 2/210. وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/177.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1311 - 1312.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النَّحل: 105]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النُّور: 4]، ووجهُ التَّغايُرِ بين خواتيم الآياتِ الكريمَاتِ[1]: أنَّ آيةَ آلِ عمران كان الحديثُ فيها عمَّن ارتدُّوا عن إيمانِهم، وأنَّ التَّوبة لا تصدرُ مِنْهُم، وإن صَدَرَتْ؛ فَلَنْ يقبلَهَا اللّٰه تعالى منهم، إذْ هي توبةٌ غيرُ معتبرةٍ شرعًا لِعَدَمِ استيفاءِ شُرُوطِهَا، ومَن لَمْ يقبلِ اللّٰهُ تعالى توبتَهُ؛ فَلَن يكُونَ له مِنَ الهدايةِ شيءٌ، وذلك يقتضي الضَّلالَ والرُّسوخَ فيه؛ وَلِذَا خُتمتِ الآيةُ بقَوْلِهِ سبحانه: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

وأمَّا آيةُ التَّوبةِ الأولى؛ فقد صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾ [التوبة: 10]، وتقدَّم ذلك قولُهُ ﷻ: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ﴾ [التَّوبة: 9]، فكان سياقُ الآياتِ في الصَّدِّ عن سَبِيلِ اللّٰهِ تعالى، وهذا الصَّدُّ تجاوزٌ لِلْحدِّ في الظُّلْمِ وانتهاك الحُرُمَاتِ، فناسبَهُ أن تُخْتَمَ الآية بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: 10].

وأمَّا آيةُ التَّوبةِ الثَّانيةُ، فإنَّه لَمَّا تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ﴾ [التوبة: 69]، وكان ذلك خسرانًا عظيمًا ما بعدَهُ خُسْرَانٌ؛ ناسبَهُ خَتْمُ الآيةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: 69].

وأمَّا آية النَّحل؛ فقد بُدِئَتْ بِقَولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النحل: 105]، ولَمَّا كان مَن افترى علَى اللّٰه تعالى الكذبَ قد بلغَ الغايةَ فيه، فصَار كأنَّ الكذبَ مختصٌّ به؛ ناسبَهُ خَتْمُ الآيةِ بقوله: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: 105].

وأمَّا آية النُّور؛ فهي مصدَّرةٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ﴾ [النور: 4]، ولَمَّا كان سببُ ذلك أنَّهم خَرَجُوا عَن حدِّ الشَّرعِ في أنَّ ثبوتَ الزِّنَا لا يكونُ إلَّا بأربعةِ شهودٍ؛ ناسب ذلك أَن تُختمَ بذِكْرِ الْفِسْقِ، فَقَالَ سُبْحَانه: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: 4].

(1) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 318 - 319.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»